(فلسفة الصيرورة: من لاعقلانية نيتشه إلى حيوية برغسون)

د/ عبد الكريم عنيات، جامعة سطيف 2

ملخص:

عند الحديث عن الفلسفات اللاعقلانية المعاصرة، فإننا نبدأ بنيتشه الذي قدم أول محاولة جدية وممنهجة لنقد العقل وكشف حدوده، بل أخطاءه الكبرى. ويمكن أن ننتهي عند برغسون الذي نقد كل اللغات العلمية وأظهر حدود المنهج التجريبي بسبب قصوره عن ادراك حقيقة الحياة السائرة والدائمة، من خلال تقديم الحدس كبديل عن البرهان. لذا حق اعتبارهما معا من أكبر ناقدي العقل الذي يجمد الحركة التاريخية والعاطفية والفكرية. هذا ما يتيح لنا امكانية البحث في تقاطعات هذين المشروعين الفلسفيين الأصيلين، دون أن نسمح لأنفسنا الاعتقاد بإمكانية مزج المذهبين أو ملاقاة الرجلين هكذا ببساطة، لأن أصالتهما الفلسفية قد وضعت حواجز قوية بينهما. هذا، وسؤال الدراسة الأساسي هو: ما حدود وإمكانيات المقارنة بين نيتشه وبرجسون بالنظر إلى اشتراكهما بالتفكير في فلسفة الصيرورة.

الكلمات المفتاحية:الصيرورة، فلسفات اللاعقل، نيتشه، برغسون

Abstract:

When we talk about contemporary irrational philosophies, we start with Nietzsche, who made his first serious attempt to critique the mind and expose its limits, but its major errors. We can conclude with Bergson, who criticized all scientific languages and showed the limits of the experimental method because of his limitations on the realization of the reality of the living and permanent life. Therefore, the right to be considered together is one of the greatest critics of the mind, which freezes the historical, emotional and intellectual movement. This allows us to explore the intersections of these two original philosophical projects, without allowing ourselves to think of the possibility of blending the two doctrines or of meeting the two men, because their philosophical origin has placed a strong reservation between them. The question of the basic study

is: What are the limits and possibilities of comparison between Nietzsche and Bergson in view of their involvement in thinking about the philosophy of becoming?

key words: to become, The Philosophy of the Unconscious, Nietzsche, Bergson.

تقديم استشكالي:

إنها لتجربة فريدة أن تقرأ لفيلسوف الحياة بعد أن تنتهى من قراءة فيلسوف القوة. ومتعة الدخول إلى نيتشه من مدخل برجسوني والنظر إلى برغسون من منظار نيتشوي لا تعادلها متعة أخرى. لذا تبيّن لنا، بعد قراءات ومقارنات ومقابلات أن المفكرين يُشكِلان قرابة فلسفية نادرة ومثمرة على أكثر من صعيد: منهجي، وشكلي، ومضموني، واجرائي. على الرغم من التوازيات العديدة التي تجعلهما لا يلتقيان مهما امتدا. إذ يمكن اعتبار فكرهما وسيلة فعّالية في النظر إلى الوضعية العربية الحالية بمنظار الفحص والتشخيص والنقد، بله والعلاج. وكم نحن بحاجة إلى علاجات بأكثر من مفكر! مثلما يجب أن نفكر في أكثر من علاج. على اعتبار أن الخلل مركب والأمراض متعالقة والعلل مقنّعة. ونحن أمام فيلسوفان، بحق وصدق، يحترفان كشف الأقنعة واسقاط الأحجبة.

من الملاحظات أعلاه، تبين لنا أن العمل على مقابلة فكر الرجلين، نيتشه وبرجسون، قد يكون ضروريا من أجل الكشف عن تحولات الفلسفة المعاصرة وتقلباتها، وبالتالي بيان امتدادات الفلسفة الألمانية في الفكر الفرنسي. وكم كان هؤلاء الأخرين معجبين بالألمان منذ غرس شجرة الحرية من طرف فلاسفة توبنجن الكبار. ولكلا الفلسفتين، الألمانية والفرنسية، مكانة صلبة وثقيلة في تاريخ الفلسفة الغربية والإنسانية ككل. فالكشف عن الأصول هو سبيل نيتشه، والاستبطان هو نهج برجسون؛ وبين الأصل الباطني والباطن الأصلي تلتقي أكبر الحدوسات الفلسفة بأحرّ الشذرات الحِكمية خصوبة وطرافة.

ستكون هذه المقالة مدخلا مرحا لكشف التواشج بين النيتشوية الخالدة والبرغسونية التي لا تموت. فالكل بعد نيتشه نيتشويين رغم أن البعض اعتذر عن ذلك، والتفكير بمعزل عن برجسون بعد برجسون من الأمور المستعصية، لأنه فتح نهجا ضروريا لكل فكر يبتغي الأعماق الروحية. لقد كانت الفلسفة الوضعية تنتظر من ينقدها بعمق، ولم يكن هذا المُنتظر إلاّ برجسون، بعد نيتشه الذي كتب "العلم المرح" في مقابل "العلم الجديّ"؛ علم الوضعية والتاريخية الموضوعية. وسيكون كشف هذا التواشج من خلال ابراز الخيوط الممتدة بينهما أولا،

والعمل على تخريج جريئ لمشروع رؤية الواقع العربي بعين نيتشه اليمنى وعين برغسون اليسرى. أو قل من خلال استعمال مطرقة نيتشه ومرايا برجسون العاكسة للداخل.

من أجل انجاز هذه المهمة، سنتوسل الكتابة بأيدي كثيرة كما كان يفعل نيتشه ذاته من خلال التعديد والتوظيف المتكوثر، ونكتب أيضا برشاقة أسلوب جميل وفكر دقيق وحار، اقتداء بمفكر حاز على "نوبل" مُستحق ومُقتدر. من أجل الإجابة عن السؤال الأساسي التالي: كيف لنا أن نصوغ، في أقل جهد فكري وفي حيز بحثي معتدل، التعالق بين النيتشوية والبرجسونية، من أجل رؤية مستجدة لواقعنا الحالي المخصوص ؟ هل من الجدية أن نحاول أو نفكر في مد جسر فكري بين "ثائر ملحد" و"هادئ مؤمن" ؟ لكن، ومن الجهة المقابلة، أوليس من المشروع أن نلاقي فيلسوفين لم يلتقيا رغم أنهما اتفقا على الأقل في كشف أقنعة العقلانية الباردة الصفراء، لصالح لذة روحانية وروحانية لذيذة مستمدة من الحياة نفسها والتي في صيرورة دائمة. وفي هذه النقطة بالذات تفرّخ فلاسفة لاحقين كُثر للتنقيب عن ايروسية الحياة بدل السعي القاتل وراء الحقيقة المجردة والتجريد المضاعف لكل ما هو عقلاني.[46] تلك العقلانية التي طغت على الحياة وخلعت كل ما هو حسي وحدسي وحيوي لصالح رموز مبتدعة. وهي بالتحقيق العقلانية التي استبدلت أساطير الأولين بأساطير المتأخرين الموضوعة في كتب الرياضيات والفيزياء المفروغين من أي نفس حيوي. لذا فأول ملمح يجمع نيتشه ببرجسون هو تحويل الفلسفة من الصناعات الفكرية المغالية في التجريد إلى الحياة الجارية في دماء الحب وأحاسيس النفس.

لقد اهتم الكثير من الفلاسفة المعاصرين بالتفكير وفق فلسفة نيتشه وبرجسون معا، ونخص بالذكر كل من بيير منتيبيللو pierre Montebello، الأستاذ بجامعة تولوز، والذي اهتم بنيتشه كثيرا، إلى جانب مقارباته بينه وبين برجسون عند بحثه الميتافيزيقا الأخرى 2003. حيث أصبح عضوا في جمعية برجسون التي أنشأت انطلاقا من الجمعية العلمية للحوليات البرجسونية. وكلود ستيفان برين Claude Stéphan Perrin الذي درس مشكلة النسيان والأبدية بين برجسون ونيتشه. لذا سنحاول أن نقدم مقاربتنا في هذه السياقات.

1- من شذرات نيتشه إلى حدوس برغسون:

يبدو نيتشه أنه يحاكي السابقين على سقراط، من خلال احياء نمط كتابة شذري أَفُل معهم بعد طغيان الحوار الأفلاطوني والعرض البرهاني الأرسطوطاليسي. أسلوب متشذر لتاريخ خاوسي لا ترتيب فيه، هو أحسن طريقة لمقابلة الفكر بالواقع. في العام الذي دخل فيه نيتشه في ظلام الجنون، وهو 1989، خرج إلى النور كتاب

[46] رولان بارت: لذة النص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، حلب، 1992، ص 50.

برجسون الأول "بحث في المعطيات المباشرة للشعور". خروج ساهم في اخراج شذرات نيتشه إلى النور الفلسفي.[47] لكن هذا لا يعني أن برجسون قد كرس فكره مطلقا لهذه الفلسفة السابقة عليه، بل أنه أظهر في العديد من نصوصه عدوانية ظاهرة لشذرات نيتشه. واقتدر على فتح مجالات جديدة انطلاقا من منظوره الخاص. لذا سنخصص هذه العنصر لإظهار مواضع النقد الذي مارسه برجسون.

لقد كان برجسون، بحسه النقدي اللافت، وبجمال أسلوبي مبهر، هو الذي تنبه إلى أن مهمة الفيلسوف لا تعدو أن تكون نقطة واحدة فقط. لا يعمل الفيلسوف طوال حياته الفكرية إلا على اثبات أطروحة مركزية واحدة. وكل نظرياته المختلفة ومسالكه المتعددة ليست إلا انشغالات مغايرة من أجل اثبات الهم الواحد. عند الفيلسوف بؤرة فلسفية واحدة وكل المهام الأخرى مشتقة منها.[48] وما يصدق على نيتشه سيصدق على برجسون ذاته، لأن فلسفته أيضا ليست إلا دوران فكري حول كعبة فلسفية واحدة. وهذا ما يحرّضنا على البحث عن مركز الفكر عند نيتشه وبرجسون معا. لقد انتهينا في دراسة سابقة أنجزناها سنة 2015 إلى أن التأويل الأكثر سعة ودقة لفلسفة نيتشه هو أنها "فلسفة للصيرورة" على اعتبار أن كل محاولاته التي ابتدأت سنة 1872 و انتهت سنة 1889 كانت مقسمة لقسمين كبيرين، بحيث يشكل القسم الأول الفلسفة الهدمية التي لمحها الفلاسفة، أكثر من القسم الثاني الذي يبدو أنه فلسفة بنّاءة أكثر مما هي نقد بالمطرقة كما هو مشهور في عبارته بالذات. ويمكن اجمال ذلك في أن فلسفته عملت على:

- الكشف عن كيفيّة ضياع مفهوم الصّيرورة في تاريخ الفكر الفلسفي الغربي، والمباحث المسؤولة عن ذلك متمثّلة في الفلسفة والعلم والأخلاق والميتافيزيقا. وهذا الشقّ يشمل الجانب النّقدي، النّقدي جدًّا، في فلسفة نيتشه. ويمكن اعتباره بمثابة التّفلسف بالمطرقة لكشف الأوهام الناجمة إنكار الصّيرورة. وحاضر الفحالة الغربية الميؤوسة هي محصلة لتأويلية ناكرة للصيرورة.

- التّأسيس لفلسفة جديدة تروم استعادة معنى الصّيرورة ومدلول الأرض وحالة الصحة، وهي على وجه التّحديد الفلسفة الإيجابيّة أو البنائيّة متمثّلة في نظريّة العود الأبدي، وإرادة القوّة، والإنسان الأعلى والفنّ التراجيدي...الخ، وقد انتهى نيتشه إلى مقدّس جديد تمثّل في الصّيرورة والأرض.[49] لذا حق القول

[47] Pierre Montebello: Nietzsche et Bergson- deux philosophes de la vie, in Magasine littéraire.
[48] Henri Bergson: la pensée et la mouvant – essais et conférences, librairie Félix Alcan, Paris, septième édition, 1939, p 141.

[49] عبد الكريم عنيات: الصيرورة في فلسفة نيتشه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة غير منشورة، جامعة عبد الحميد مهري – قسنطينة 2، 2015/2014، ص 424.

بأنه لم يرفض فكرة القداسة بإطلاق بقدر ما استبدل مضامينها القديمة بمضامين جديدة. وهي جديدة في الظاهر فقط، لأن التجربة الفكرية اليونانية قد ادركت الحقيقة قبلنا بكثير.

لذا، فمن الممكن، وفق كل التحليلات التي قدمناها أن نعتبر فلسفة نيتشه بمثابة "ميتافيزيقا الصيرورة". هي ميتافيزيقا أخرى وفق عبارة مونتيبيللو. على أساس أنه فسر الوجود بما هو وجود باعتباره حركة غير منتهية وغير منتظمة على أي أساس مهما كان. سواء كان هذا الأساس لاهوتي أو ميكانيكي. بل أن الصيرورة هنا لا غائية على الإطلاق. وبالتالي فإن تحديد هيدجر القائل بأن نيتشه هو آخر ميتافزيقي في الفلسفة الغربية،[50] صحيح في سياق التأكيد على أنه آخر من حدد الوجود في مجمله تحديدا شاملا على غرار بقية الميتافيزيقيين الكبار. وفي هذه النقطة بالذات، أي اعتبار صيرورة الوجود غير محددة، بله لا يمكن تحديدها اطلاقا، هو ما سيفرق نظرية الصيرورة عند نيتشه ونفس النظرية عند برجسون. على أساس أن فيلسوف الحدس قد اهتم كثيرا بمشكلة الصيرورة، لكن في سياقاته الخاصة وبمناهجه المعروفة.

ولو أردنا أن نفعل ذات الشيء بالنسبة لبرجسون الذي ينطبق عليه التحديد السابق، أي كون الفيلسوف يخصص حياته الفكرية لقضية واحدة فقط، مثله مثل كبار الفلاسفة، لقلنا أن فلسفته هي فلسفة فهم التطور والتغير في الوجود بأوسع معانيه. وانكار قدرة العلم على درك الحقيقة متأت من أن هذه المعرفة العلمية لا يمكن أن تدرس إلا ما هو ثابت، في حين أن كل شيء في حالة تغير مستمر. مما يدل على أن ادراك التغير لا يتم بالعلم المألوف، بل بالحدس الذي يتحسس هذا التغير اللامتناه المسمى صيرورة.[51] ولئن كان برجسون يرفض الانغلاق المذهبي كل الرفض نظرا لاعتقاده بأن المنظور هو الحقيقة الوحيدة التي يمكن اثباتها، فإنه من المبرر جدا أن نستعين بكل المذاهب الأخرى من أجل تنمية المذهب الخاص. لذا نجده يقول في محاضرة "هكسلي" التي ألقاها في جامعة برمنجهام [انجلترا] في مايو 1911 تحت عنوان "الشعور والحياة" بأن "الفلسفة لن تكون بعد اليوم بناء يشيده فرد، ولا مذهبا فلسفيا يقيمه مفكر، بل ستحتمل وستقتضي إضافات وتصحيحات وتنقيحات: تتقدم كالعلم الوضعي سواء بسواء، وتنشأ هي الأخرى بتعاون".[52] وهذا بالتحديد ما انتهى إليه نيتشه، في أحد الشذرات المُخلفة عندما أكّد بأن التمذهب هو بمثابة تصبين، على أساس أن الفيلسوف الذي

[50] Martin Heidegger : Nietzsche, tome 1, traduit par Pierre Klossowski, éditions Gallimard, Paris, 1971, p 364.

[51] Henri Bergson: l'évolution créatrice, Presses Universitaire de France, Paris, 102e édition, 1962, p 303.

[52] هنري برجسون: الطاقة الروحية، ترجمة سامي الدروبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007، ص 16-17.

يسيج فكرة بمسلمات مذهبية مغلقة سابقة، ليس هو في النهاية، إلا الوجه الفلسفي للتمركز على الذات.[53] لذا نجد الناقد الأدبي والأديب الإنجليزي "كولن ويلسون" يعتبر نيتشه من الفلاسفة اللا منتميين.[54] أي الذين فكروا خارج السرب وبمعزل عن القطيعية المذهبية، لأنه رفض التمذهب التقليدي الذي يغلق الفكر بأسس ثابتة، وينهي الإمكانيات بعقائد كلسية صلبة لا تقبل اللمس.

تعتبر فلسفة برجسون من أهم الفلسفات اللاعقلية التي واصلت مهمة نيتشه الموجهة لكشف مساوئ العقل وأظلام النور الذكي. فالبعض من الفلاسفة يعتقدون بأن العقلانية قد خانت الواقع والحياة، وأحسن طريقة لاسترجاع التوازن هو خيانة العقل للعقل ذاته. بمعنى العمل على اظهار نقائص العقل وتهافت كل ما هو عقلاني مفرط في عقلانيته. ويعتبر مذهب برجسون من بين المذاهب اللا عقلية في الفلسفة المعاصرة. وقد عرفت كتاباته انتشارا كبيرا نظرا لطابع اسلوبه السلس [نذكر أنه تحصل على جائزة نوبل للأدب في العشرينيات من القرن الماضي] ومضمون أفكاره المبتكرة. ويعرف مذهبه عموما بمذهب الحدس أو الحياة. فما الحدس ؟ ما المعرفة الحدسية مقارنة بالحسية والعقلية ؟ وهي المذاهب الأكثر انتشارا في تاريخ الفكر الفلسفي التقليدي حتى الازمنة الكانطية الحديثة.

لا يعني الحدس كمذهب فلسفي التخمين أو التكهين، مثلما قد يدل المصطلح من حيث المرادف اللغوي. بل يدل من المنظور الفلسفي، وكما قال الرازي: سرعة الانتقال من المبادئ إلى المطالب. وبهذا يكون الحدس مفهوما في مقابل المعرفة الاستدلالية، لأن الاستدلال بحاجة إلى وسائط للانتقال في البرهنة. لذا يقال عن الحدس بأنه "مقدمات بلا وساطة"، بمعنى أنه لا يتأسس على الحجج المنطقية ولا يتدعم بالأسانيد الفكرية، بل يتجلى مباشرة كمعرفة لحقيقة بديهية.[55] فإذا كانت المعرفة العقلية هي الانتقال عن طريق الحدود والمفاهيم والوسائط الرابطة والسببية، كما هو حادث في البراهين المنطقية التي لا تستنتج إلا بوسائط مباشرة أو غير مباشرة. فإن المعرفة الحدسية تجربة شخصية باطنية، وليس موضوع تعلم ولا شرح ولا تبسيط. لذا نجد برجسون دائم التأكيد على الطريقة الاستبطانية الشعورية والروحية في التفكير والبرهنة، وهي الطريقة التي سبقت الطرق

[53] Friedrich Nietzsche: Fragments posthumes – été 1882-printemps 1884, œuvres philosophiques complètes, tome IX, traduit par Anne-Sophie Astrup et Marc de Launay, éditions Gallimard, Paris, 1997, § 3 [79], p 76.

[54] كولن ولسون: اللامنتمي – دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين، ترجمة أنيس زكي حسن، منشورات الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1982، ص ص 139-153.

[55] André Lalande: vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, Paris, 2002 , p 537.

العلمية التي تغنى بها العلم الحديث.[56] هذا، ويمكن الحديث عن عدة أنواع من الحدوس، مثل الحدس الحسي، والحدس النفسي، والحدس الرياضي مجسدا في البديهيات التي لا تحتاج إلى برهنة ما، وأيضا الحدس الصوفي أو التنسكي الذي يدعي امكانية معرفة المقدس مباشرة دون وسائط عقلية. وقد استثمر برجسون كثيرا في هذا النوع الأخير من الحدس، على أساس أن يفوق حواجز اللغة العلمية.

وقد لاحظ برجسون، بأن كل الفلاسفة، سواء حسيين أو عقليين، قد اعتمدوا على العقل بصورة مطلقة. لكن هل العقل قادر على معرفة كل شيء ؟ ما هي حدود العقل في العلوم ؟ يقول بأن العقل وإن كان بمقدوره أن يزودنا بمعارف في العلوم المادية والطبيعية، فإنه لا يستطيع الكشف عن ميدان الحياة النفسية أو الحس الباطني. ولا يمكن أن يدرس المواضيع إلا إذا أقصى منها المكونات الحقيقة، فالعلم يقصي الديمومة من الزمان ويقصي الحركية mobilité من الحركة.[57] لذا فإن العلم لا يمكن أن يقبض على الكيفيات لأنه كمي بطبعه، أي لا يمكن أن يعقل إلا الكميات القابلة للقياس والحساب. إن العقل بمقولاته المجردة والمكممة والرقمية لا يستطيع الولوج إلى الحس الباطني، الذي يمتلك زمان خاص يختلف عن الزمان المكاني الآلي المحسوب. فيجب البحث عن ملكة أخرى للتعرف على الزمان الشعوري أو النفسي والروحي، وهذه الملكة هي الحدس l'intuition. لذا فالحدس عند برجسون هو ضرب من الادراك المباشر لحياتنا الباطنية المتدفقة باستمرار، فلئن كان العقل يعتمد على طريقة التحليل والتقطيع لفهم الأمور، كما في منهج ديكارت المشهور، (المرحلة الثانية من المنهج هي التحليل الذي يتطلب التجزئة والتفرقة)، فإن الدفق النفسي والذي يسميه برجسون بالديمومة لا يمكن تقطيعه. وإدراك الزمان الشعوري أو الباطني والحياة النفسية كاملة، ثم الحياة الخارجية، لا يكون إلا بالحدس. لكن ما هو الشيء الذي يميز الديمومة la durée ؟ يتميز الزمان الباطني أو الديمومة، بجملة من الخصائص هي: لا يخضع للقياس مثل الزمان الآلي أو المكاني. تجدد لحظاته دوما، أي غير قابلة للتكرار والإعادة. زمان لا مكاني، بل شعوري خالص، وقد كانت أطروحة برجسون للدكتوراه، تحت عنوان: "رسالة في المعطيات المباشرة للشعور." فيها نقد العلم والاتجاه الآلي والحتمي. وبهذا، فقد لاحظ برجسون عيوب المعرفة العقلية أو العلمية، ومن أهمها: تتناول الموضوع من الخارج، ولا تلمسه إلا سطحيا. هي معرفة نسبية وليست كاملة ومطلقة. هي

[56] هنري برجسون: الطاقة الروحية، مرجع سابق، ص 98. وأيضا:

Henri Bergson: les deux sources de la Morale et de la Religion, librairie Félix Alcan, Paris, 11eme, p p138- 172- 332- 341.

[57] Henri Bergson: Essai sur les Données immédiates de la conscience, presses universitaires de France, Paris, 68eme édition, 1948, p 86.

معرفة كمية لا كيفية. وهي معرفة استاتيكية أي ثابتة وليست حركية كما هي الحياة النفسية التي تتمتع بالحركية والديمومة والحرية.[58] فلا مجال للضرورة في الحياة النفسية مثل الطبيعة. ومن السهل جدا أن نشعر بتقارب هذه الأفكار من شذرات نيتشه التي قرضت الحياة النفسية المتفردة، وعملت على كشف أوهام اللغة، أو قل تزييف الاعتقاد بقواعد اللغة ذاتها.

وعن السؤال المتبادر، حين نقابل المعرفة العقلية بالمعرفة الحسية، وهو هل أن الحدس مناقض للمعرفة العقلية ؟ هل يجب رفض كل ما هو عقلاني علمي ؟ يجيب برجسون بأن الحدس ضرب من ضروب التفكير، ولكنه ليس تفكيرا علميا تكميما جامدا أو مجردا، بل هو تفكير استبطاني حي متحرك فوق مادي، لذا فالحدس لا يلغي العقل، بقدر ما يكمله. ويتمم ما عجز العقل عن اتمامه، لذا فالحدسية هي تتمة لنقائص العقل العلمي الوضعي العاجز عن اقامة درس حقيقي عن الحياة النفسية العميقة. لأنه متمسك بطريقة جامدة وحرفية لا تعرف الاستثناء ولا تعترف بالفرادة. فرادة دافع عنها نيتشه دوما عندما رفض الحياة وفق القطيع الذي يمسح، كما تفعل الممسحة، كل ملامح التمايز.

يمكن أن نلمح توافق في تصور الميتافيزيقا بين برجسون ونيتشه، على أساس أن برجسون يقابل الميتافيزيقا بالعلم مقابلة اختلاف. ففي حين أن العلم هو المعرفة القائمة على التحليل بواسطة الرموز والصور. فإن الميتافيزيقا هي العلم الذي لا يستعمل هذا النوع من التعبير. لذا فالميتافيزيقا ليست علما وضعيا. [59] لأن العلم الوضعي القائم على الترميز لا يبحث في المبادئ، التي تشكل جوهر الميتافيزيقا. إن الوجود الذي لا يُدرس بالتحليل الرمزي هو موضوع الميتافيزيقا بالذات، وقد كان نيتشه يعتقد بأن هذا الوجود غير قابل للدرس أصلا، بل هو إلى الغيمة المتبخرة أقرب منه إلى الشيء المحدد بوضوح.[60] العلم إذن، وفق تحليل برجسون عاجز عن القبض الكلي عن مفهوم الوجود العام، لكن منهج الفلسفة الحدسي قادر على ذلك، لأنه يروض الفكر لينتجم مع هذه الوضعية الموضوعية المخصوصة. بل أنه يمكن للحدس أن يحلل، لكن لا يمكن للتحليل أن يحدس. [61] وناتج ذلك أن الحدس هو منهج ادراك الصيرورة ذاتها، والتي تمثل الصورة الأصلية للوجود، وبما هي تعبير عن الحياة

[58] Henri Bergson: Essai sur les Données immédiates de la conscience, Op.cit, p 165-170.
[59] Henri Bergson: introduction à la métaphysique, Revue de Métaphysique et de la Morale – Paraissant tous les Deux mois, Onzième Année, 1903, Librairie Armand Colin, Paris, p 4.

[60] Martin Heidegger: Introduction à la métaphysique, traduit Gilbert Kahn, édition Gallimard, Paris, 1967, 47.

[61] Henri Bergson: introduction à la métaphysique, Op.cit, p 19.

الإنسانية النفسية وهي في حالة حركة.[62] إن ما يجعل الحدس يغترف الوجود السائل هو قدرته على التخلي عن الرموز والصور العلمية. ويظهر أن ارادة التخلي عن وهم الموضوعية وصنم العلمية هو الذي يشرك شذرات نيتشه بحدوس برجسون.

2- أخلاق القوة وأخلاق الانفتاح.

الأكيد أن هناك خلافا في منطلقات نظرية نيتشه وبرجسون الإيطيقية. ففي حين أن الأول قد عمل على تجاوز الأخلاق الدينية التي سادت أوروبا قرون طوال واستبدالها بأخلاق الجسد، فإن الثاني قد عمل على انتقاء الأخلاق الدينية العليا في مقابل الأخلاق الدينة الدنيا. لكن من السهل بمكان أن نلحظ تطابق القسمة الثنائية للأخلاق عند كليهما، وهذا يدل على التوافق الصوري على الأقل. وتفصيل ذلك كما يلي:

- فريدريك نيتشه: الأخلاق التي سادت الأرض أو مازالت تسودها، اثنتين لا ثالث لهما:

1- أخلاق السادة: يشعر النبيل بأنه هو من يحدد القيمة، ولا يهمه استحسان أو استهجان الغير لأفعاله، هو خالق القيم القائمة على تمجيد الذات وتعظيمها، نابعة من الإحساس بفيضان القوة، والإيمان المفرط بالذات. إن من فضلته الحياة وأوهبته القوة والجرأة، لا يمكن إلا أن يفضلها ويقدسها.[63] إنه رد المعروف معروفين، والكيل مكيالين.

2- أخلاق العبيد: لا تنفصل عن المنفعة، تنبذ القوة نبذا ارتكاسيا، كل ما يثير الخوف والخطر هو شر، ومنه فالخير في تصور العبيد أو الضعيف على السواء، هو ذلك الذي لا يثير الخوف، فالخير هو البلادة بالتحديد التي لا تختلف عن الطمأنينة العمياء. إنها أخلاق نكران الذات وكرهها، من خلال الدخول في القطيع الذي يحمى الفرد الضيف.[64] لذا فهي أخلاق تقليد وتكرار وتمجيد...الخ.

- هنري برجسون: هناك نوعين من الأخلاق:

[62] Ibid, p 29.

[63] عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، 1993، ص 37.

[64] Friedrich Nietzsche: Par-delà le bien et le mal, traduit Henri Albert, librairie général française, 1991, para 260, p 324-328.

1- الأخلاق الديناميكية: هي انطلاقة إلى الامام، الحركة هي أصلها وطبيعتها، منفتحة على الإنسانية، كل الإنسانية دون تحديد عرقي أو ديني أو ثقافي. قائمة على مبدأ صوفي إبداعي. وطابعها الحركي يجعلها قائمة على التطلع aspiration، لذا فهي فوق عقلية، أي روحية خلاّقة.

2- الأخلاق الإستاتيكية: ثابتة لا تتغير، وإن تغيرت فعلا، فإنه سرعان ما تتنكر له، أو تنساه، تتنكر للتغير وتدّعي النهاية والنجازة. قائمة على اللغة والعقل اللذان يجمدان الحركية من أجل الفهم والتعبير. وهي أخلاق محلية موجهة للمجال الضيق (أسرة أو مجتمع)، لذا فهي أخلاق آلية غريزية، تتثبت في العادات والأفكار والمؤسسات الاجتماعية التي تصنع الأخلاقيات الواهمة، لذا فهي ذات طابع ضاغط وتسلطي، سابق للعقل أو قل تحت عقلية. [65] وهذا ما يعادل الطابع الغريزي السابق لكل عقلنة.

من هذا العرض السريع والمضغوط، يمكن بسهولة بالغة درك مدى تطابق التقسيم النيتشوي والتقسيم الفرويدي على أساس أن أخلاق الضعف تقابل أخلاق الثبات في حين أن أخلاق القوة تطابق أخلاق الحركة. ولئن اعتقد البعض أن هذا تعسفٌ في المطابقة، بالنظر إلى اختلاف الأسس النظرية للبناء الأخلاقي عندهما معا، فإن الرد المناسب هو أن الديناميكية ليست إلا تعبير عن القوة كما تصورها نيتشه ذاته، ليست القوة إلا طلب المزيد من القوة، وفي هذا الطلب يكمن بالتحديد مبدأ الدينامكية. في حين أن السكونية هي التي تولد الإتكالية والقطيعية والإتباعية في النهاية التي هي ند الضعف. ما المتكل إلا تمهيد متدرج للغرق في الضعف الإيطيقي. لذا يحق لنا أن نقول بأن هناك تناسق في تقسيم الأخلاق بين نيتشه وبرجسون على الرغم من اختلاف روح كلا الفلسفتين وكلا النظريتين. تناسق يسح بالحديث عن أخلاق القوة الديناميكية وأخلاق الضعف الإستاتيكية. بل يمكن تطوير أطروحة ايطيقية بأكملها قائمة على امكانية كشف التواشجات الممكنة بين النمطين. وبالنظر إلى اعتقاد نيتشه بالتشكك كأخلاقية عندما قال بأن كل إنسان عظيم متشكك بالضرورة، في مقابل رجل الإيمان الذي يمثل النوع الأدنى، لذا فحرية الفكر ليست إلا عدم الاعتقاد كغريزة في الإنسان.[66] مما يسمح بأن نؤسس أخلاق القوة على التشكك في الأحكام السائدة. وبالنظر إلى عقيدة برجسون القائلة بأن الإعادة تمثل كل أنماط

[65] Henri Bergson: les deux sources de la Morale et de la religion, Op.cit, p p56-290.
[66] Friedrich Nietzsche: la volonté de puissance, traduit Geneviève Bianquis, tome 2, éditions Gallimard, Paris, 1995, livre 2, para 519, p 434.

السهولة الفكرية أو الفزيائية، في حين أن الإنتاج والخلق هو ما يعتبر صعبا.[67] لذا كانت الأخلاق الحركية بما هي أخلاق ابداعية هي الإيطيقا الصعبة.

3- برجسون قارئا نيتشه.

إن المقابلة السابقة بين نظرية الأخلاق عند نيتشه ونظريتها عند برجسون لا تهدف إلى القول بأن الثاني قد أخذ عن الأول. بل تسعى إلى التنبيه على سبيل التأكيد بأن هناك تعالق بين تصور القوة وتصور الحركة، بل أن الحركة ذاتها قوة والقوة في المقابل حركة. وبما أن برجسون عاش أكثر من أربعون سنة بعد وفاة نيتشه، فهذا ما سمح له بأن يطلع على هذه الفلسفة التي انتشرت بعد موت نبيها. لذا سنخصص بعض الفقرات للكشف عن قراءات برجسون النقدية لفلسفة نيتشه.

ولو أن الفكرة الرائجة عن فلسفة نيتشه هي أنه جعل الناس صنفين هما الأقوياء والضعفاء، فإن الإقرار بأنه قد حدد الناس وفق هذا الفصل بالتحديد المطلق هو أمر تبسيطي جدا في حق فكره. فمعظم الناس يفهمون من "القوة" القوة البنيوية المتعلقة بالجسم، في حين أن القوة تتفرع إلى قوة نفسية عاطفية وقوة جسمية وقوة عقلية أيضا. ونيتشه ذاته يعتقد بوجود رابط ضروري بين الحالة العضلية أو البنيوية وبين العاطفة العامة عند الفرد. [68] مما يعني أن البنية الجسمية للإنسان هي من يحدد طباعه وهيكله الذهني، وهذا عكس التحديد الأفلاطوني الذي أهمل الجسد وجعله سلبيا في الكينونة البشرية، ومن المعروف أنه جعل سكان هاديس كلهم حكماء لأنهم تخلصوا من ثقل الجسد عن طريق الموت، وقد جعل الفلسفة استعداد دؤوب نحو تمويت الجسد وتحرير الروح من هذا الصندوق الثقيل. [69] فهل يوافق برجسون على ترسيمة نيتشه التي تضع القوة البنيوية العضلية أساسا لقوة الإنسان ؟

ينطلق برجسون من سؤال يتعلق بمشروعية مماثلة الإنساني مع الحيواني قائلا: هل يمكن لنا أن نعتبر أساس التمييز بين الوظائف الإنساني هو الاستعداد البدني فقط على شاكلة مجتمع الحشرات حيث تتحدد الوظائف على أساس البنية الجسمية فقط ؟ وبالتالي فإننا نقسم وظائف الإنسان على أسا القوة والضعف الجسميين ؟

---

[67] هنري برجسون: الطاقة الروحية، مرجع سابق، ص 181. ويقول في كتاب آخر أن الشيء الوحيد الذي يجعلنا نبذل جهود هو النقد والتفحص، في حين أن المعاودة والمحاكاة كتقليد والثقة في الموجود كما هو...الخ كلها أمور تحث على الانسياق والتبعية. يطلب العودة لـ:

Henri Bergson: les deux sources de la Morale et de la religion, Op.cit, p 144.

[68] Friedrich Nietzsche: Fragments posthumes – été 1882-printemps 1884, Op.cit, § 7 [138], p 299.

[69] Platon: Phédon, traduit E. champry, édition Garnier- Flammarion, Paris, 1965, 82 c-83 b, p 137. Et Friedrich Nietzsche: Fragments posthumes – été 1882-printemps 1884, Op.cit, § 8 [15], p 351.

أم أن الازدواج لا يكون وفق هذا التقسيم فقط بل يتحدد وفق الازدواجية بين النفسي والجسمي معا ؟ [70] هذا السؤال يستهدف تحديد أسبقية القوة المطلوبة. لربما علينا أن نقترح العكس ونقول أن المطلوب، في الحالة النفسية هو الازدواج بين القوة والضعف النفسي أكثر من القوة والضعف الجسمي. يبدو أن برجسون قد تعامل مع نظرية إرادة القوة تعاملا سطحيا جدا، على أساس أنه أخذ نظرية القوة بمعناه البسيط والمنتشر في الحس المشترك. لأن نيتشه يقصد بإرادة القوة أو نظرية القوة كل الوظائف الحيوية والحياة ذاتها، بل كل الوجود بما هو طاقة للتحقق. أي أن ارادة القوة تشمل العالم العضوي والعالم اللاعضوي معا.[71]

إن المسألة التي تزعج برجسون في نظرية إرادة القوة عند نيتشه هي أنها تقسم الناس، بالحديد والنار، قسمين متباعدين. فيولد البعض قويا سيدا مسيطر ويولد البعض الآخر ضعيفا عبدا مسيطر عليه. وهنا بالضبط يكن خطأ نيتشه حسب تقدير برجسون، لأن كل الناس يحملون قوة وضعفا، يأمرون ويطيعون، نحن نحمل الخاصيتين معا وليس هناك قوي فقط وضعيف فقط. [72] فكل شيء موجود في كل شيء مثلما قال بعض الفيزيولوجيين الذريين الإغريق !

لو بحثنا سبب انزعاج برجسون من التقسيم النيتشوي للقوة والضعف، لوجدناه في روح المذهب البرجسوني ذاته. فهو لا يؤمن بالانغلاق، سواء كان أخلاقيا أو دينيا، على أساس أن كل انغلاق هو عودة لمرحلة تحت عقلية تشرك الإنساني بالحيواني. ببساطة هو عود إلى المجتمعات الدنيا.[73] ومن هنا يظهر الابتعاد عن الإنسانية الراقية التي نظّر لها نيتشه بسبب الانغلاق الذي يدل عن موقف أدنى أو قل على تراجع وتقهقر ونكوص.

لكن لا يجب أن ننساق وراء فهم برجسون، وقد قلنا أنه أخذ نظرية ارادة القوة مأخذا خفيفا، على الرغم من أنها أعمق نظرية اشتغل عليها نيتشه في نسقه الفلسفي. إذ أن إرادة القوة ليست موجهة لهدف معين مثلما نعتقد، كأن نريد السيطرة أو التفوق أو الغلبة...الخ بل على العكس من ذلك تماما، فهي إرادة لا تريد شيئا محددا، إنها ليست إرادة بمعنى الرغبة والنية، بل هي حتمية إرادة القوة، لذا فقد اقترح البعض ترجمتها بالاستقواء. لذا فإرادة القوة ليست شأن الأقوياء فقط، بل حتى الضعفاء لهم إرادة للقوة. لذا فالقوة هنا ليس

[70] Henri Bergson: Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Op.cit, p 299.

[71] بيير مونتيبيلو: نيتشه وإرادة القوة، ترجمة جمال مفرج، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت– الجزائر، الطبعة الأولى، 2010، ص 68.

[72] Henri Bergson: Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Op.cit, p 300.

[73] Ibide, p 17.

لها هدف مثلها مثل الإرادة كما تصورها شوبنهاور أستاذ نيتشه في بداية حياته الفكرية.[74] ومن هنا عبارة نيتشه المرحة والفارقة: فندافع عن الأقوياء ضد الضعفاء. بل أن تاريخ استقواء الضعفاء قد فاق تاريخ استقواء الأقوياء. وهنا يظهر الفارق بين تصور الصيورة بين نيتشه وبرجسون على أساس أن إرادة القوة مثلها مثل الصيورة الكونية لا تتطور نحو غاية معلومة،[75] بل هي عماء بلا عقل أو مخطط. في حين أن برجسون يتصور أن كل صيورة وكل تطور يمثل نظام نام له غايات معلومة.

4- فلسفة عربية بطعم نيتش- برغسوني.

ليس غريبا أن تملأ الفلسفة الغربية فراغ الفكر العربي الحديث والمعاصر الذي عجز عن استحداث آليات نقدية وبدائل منهجية لتشخيص وتفكيك الوضع العربي المركب. لذا شكلت فلسفة نيتشه نبعا لم ينضب حتى اليوم، حيث استلهم الكثير من الفلاسفة والكتاب والأدباء من طريقته الثورية الطريفة منهج تشخيص أزمة الواقع والفكر العربيين. ونخص بالذكر هنا جبران خليل جبران وأبو القاسم الشابي في ميدان الأدب الحر، حيث طالبا بالثورة الجذرية والعاصفة على كل ماهر الفتور والتخلف والنكوص الذي عاشه العرب. وفي ميدان الفلسفة نجد أيضا الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي بدأ باكورة أعماله الفلسفة بكتاب نيتشه وهو في العقد الثاني من عمره، وفؤاد زكريا الذي قدم نيتشه كنموذج للفكر الثوري الذي ينبغي الاقتداء به...الخ.[76] ويمكن أن نستشف أيضا تأثير نيتشه في العشرات من الدراسات الأكاديمية التي أنجزت حول فيلسوف القوة في مختلف الجامعات العربية. وهذا يدل على تغلغل غير مسبوق للفلسفة الغربية في العالم العربي. والحق يقال، أن قراءة نيتشه تثير حماسة غير منقطعة النظير، لأنه تناول كل مظاهر الضعف والتناقض والانحطاط التي يعيشها الإنسان عامة والعربي ليس مستثنى من ذلك.

[74] Edwin clerckx : langage et affirmation- le problème de l'argumentation dans la philosophie de Nietzsche, édition l'Harmattan, Paris, 2005, p 171.

[75] بيير مونتيبيلو: نيتشه وإرادة القوة، مرجع سابق، ص 118.

[76] للإطلاع على تأثير نيتشه في الفكر العربي الحديث يمكن الإطلاع على كتابين تدارسا المشكلة:

- جمال مفرج: الإرادة والتأويل – تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص 81 إلى آخر الكتاب.
- عبد الرزاق بلعقروز: المعرفة والارتياب– المساءلة الارتيابية لقيمة المعرفة عند نيتشه وامتداداتها في الفكر الفلسفي المعاصر، الفصل الأخير.

أما حالة برجسون، فهي أكثر تأثيرا في العالم العربي ذاته من العالم العربي. حيث أن طبعات كتبه قد بلغت أرقاما مدهشة، حيث تفوق بعض الكتب أكثر من مائة طبعة. وهذا نادر الحدوث بالنسبة للأعمال الفلسفية، وإن كان مؤلوفا في حالة الأعمال الأدبية. رغم ذلك فهناك العديد من المفكرين والأكاديميين العرب الذين اشتغلوا حول فلسفته مثل دراسة "المذهب في فلسفة برجسون" للدكتور مراد وهبة،[77] وقبله بحوال عقد من الزمن دراسة زكريا ابراهيم المهمة.[78] ودراسة الدكتورة نورة بوحناش من جامعة قسنطينة 2 بالجزائر، والدكتور خالد البحري من جامعة تونس المنار...الخ.

يمكن أن نلاحظ نقطة مشتركة في حالة نيتشه – برجسون، وهي أنهما أثرا تأثيرا مزدوجا، أي حققا تأثيرا مس الأدب والفلسفة معا. هذا، ومن الواضح أن كتابات نيتشه ليست خارجة كلية عن النمط الأدبي، إذ أن متن "هكذا تكلم زرادشت" يعتبر قصيدة عميقة ومطولة تنبض شعرا واستعارات لا تنتهي. كما أن الروح الأدبية لبرجسون غير خافية على أحد، إذ استطاع افتكاك جائزة نوبل للآداب. وجمال أسلوبه انتقل إلى العربية رغم حاجز الترجمة.

الخاصية التي جعلت فلسفة نيتشه تؤثر في الفكر العربي هي أنها فلسفة شكية تعمل على ازالة أقنعة الظواهر المزيفة. فكل من يقرأ هذه الفلسفة، لن يثبت أبدا على طريقة تفكيره قبل القراءة. لأنها تعلم طريقة التعامل المتشكك في كل المسائل الموروثة. فهي تعلم أن التخلق لا يعني الخضوع، والإيمان لا يدل على الكذب بأي ثمن، وأن روح القطيعية قد تسيطر على الإنسان لدرجة أنه يتبناها ويقدسها. إن دعوة نيتشه إلى الإنسان الأعلى تساعد الفرد على تجاوز ذاته من خلال التنظير لنمط كينونة إنساني أشرف وأنبل. نمط يتعالى على أنانية منفوخة بهواء فاسد، وهي التي طبعت الوجود الإنساني ككل والعربي أيضا. بل أن معظم شذرات نيتشه تنطبق على واقع العرب، بخاصة في عصر النهضة حيث تفطن الحداثيين العرب إلى فداحة الانحطاط الروحي الذي غطى التاريخ العربي- الإسلامي.

أما الميزة التي جلعت فلسفة برجسون قادرة على افادة الفكر العربي، فهي الإنفتاح الفكري من خلال اكتساب كفاءة التعامل مع المعطيات بروح الانفتاح والتكامل والتركيب. وفضيلة هذه الإنفتاحية تكمن في استثمار مكاسب كل توجه دون اقصاء أو اخفاء. ولا تظهر الإنفتاحية في المذهبية فقط، بل في الأخلاق والدين وهما عماد أي ثقافة قادة على مواجهة المستقبل. لا أحد منا يمكن أن يتنكر لظاهرة انغلاق الأخلاق والدين في الفهم

[77] مراد وهبة: المذهب في فلسفة برجسون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1987.

[78] زكريا ابراهيم: برجسون، دار المعارف، القاهرة، 1956.

الإسلامي المتوسط، حين أن أسس الاخلاقيات الإسلامية، في معظم المذاهب الفقهية، تفيد حماية الجماعة المحدودة أكثر من خدمة الإنسانية الأكثر سعة. كما أن الدين كما هو مفهوم واقعيا، أي وفق التلقي العربي، قد استعمل في الكثير من المناسبات لارتكاب أفظع الجرائم سواء محليا أو عالميا.

يمكن التقرير أن استجماع روح الفلسفة عند نيتشه التي تتمثل في محاولة قلب القيم مع روح الفلسفة عند برجسون المتمثل في حرية الإنسان، من خلال الفهم الصحيح لواقع الحضارة العربية الحالية، سيساعد في تجاوز سيطرة القيم الماضوية التي فقدت البعض من مبررات استمرارها، وعلى تجاوز عقيدة القدرية التي كبّلت الإرادة العربية حد شللها. حقيقة أن مشكلات الواقع العربي ليست مركزة في نقطة واحدة أو اثنتان، بل معقدة ومتكوثرة، إلا أن المدخل التشخيصي الذكي قد يساعد على فك المركب المعقد شيئا فشيئا.

- **استدلال ختامي:**

هذه هي الفلسفات، نقصد فلسفة نيتشه وبرجسون وكل من استلهم منهما، التي تمثل نموذج الفكر الذي يفصح بلا مراقبة عن اللذة:[79] لذة الحياة ولذة الروح. إن كبت اللذة لهو قدر الفلسفة منذ المثالية البارمنيد-أفلاطونية التي جعلت الرأس أهم من القلب. في حين أن الفلسفة منذ القلب النيتشوي إلى غاية التأسيس البرجسوني قد عملت على التقليل من جرعة العاقلية لصالح هوى الحياة وحياة الهوى. لذا فقد كانت نصوصهم نسيج عقلي متقن موجه ضد العقل ذاته. وعلى الرغم من أن نيتشه قد انطلق من مبدأ هدم المثالية الفلسفية التي امتدت إلى الدين المسيحي، وعلى الرغم من أن برجسون قد انطلق من رد طغيان الفلسفة الإيجابية والعلمية، إلا أنهما معا قد حاكما العقل أعسر محاكمة عرفها تاريخ الفكر البشري. وفي هذا المستوي يلتقي فيلسوف القوة والإيروس مع فيلسوف الانفتاح والحدس. لذا فيمكن الاقرار أن كلا الفيلسوفين قد كتبا ضد طغيان النظرة العلمية التي هي البنت البكر للنظرة العقلية. فخطاب العقل يرتكب أخطاء كثيرة، بل هو ضحية منهجه الذي أظلم "حقيقة الحياة" في اللحظة التي أنار فيها "حياة الحقيقة". لقد كان نيتشه أكبر من توجس من العلم، ولم يفعل برجسون سوى أن أثبت خطأ "نهج العلم". وبذلك فتحوا المجال أمام الفلاسفة اللاحقين ليؤكدوا مخاطر تسليم مقاليد الحكم والتخطيط للعلم وحده: "ينبغي أن ينظر إلى مستقبل المجتمع العلمي بتوجس (...) فالمجتمع العلمي لا يتسق مع البحث عن الحقيقة، ولا مع الحب، ولا مع الفن، ولا مع المتعة المخلصة، ولا مع أي من هذه المثل العليا التي اعتنقها الإنسان حتى الآن".[80] أوليس هذه شهادة رجل من أهل

[79] رولان بارت: لذة النص، مرجع سايق، ص 99.

[80] برتراند رسل: النظرة العلمية، ترجمة عثمان نويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015، ص 253.

النظرة العلمية ذاتها ! مما يكشف صدق شذرات نيتشه وحدوس برجسون معا. لقد تقاطعت هاتان الفلسفتان، رغم الفروق الكثيرة، في مسألة كشف حدود العقل العاجز عن تناول الوجود بطريقة كلية وشاملة. والسبب الذي جعلهما معا يكشفان قصور العلم عن الإحاطة بالوجود على حقيقته هو أن المنهج العلمي واللغة العلمية المعبرة عن نتائج هذا المنهج، تصور الظواهر الطبيعية على أساس أنها كيانات وجودية مستقلة بعضها عن البعض. وقد بلغ الحد عند نيتشه أنه أنكر وجود الشيء ذاته وهو أساس المنطلق العلمي.[81] كما أن برجسون قد نهج طريق استشكال وجود الذرة،[82] التي هي منطلق كل بحث فيزيائي أو بيولوجي. بل أن البعض يجعل للقانون واقعية أكثر من واقعية الظواهر الطبيعية ذاتها.[83] وهذا يدل على أن العلم في أنساقه ومناهجه ونتائجه ينافس الوجود الحقيقي. وعندما نسأل في السياقات النيتشوية قائلين: هل يمكن أن نعرف القانون ؟ أو هل يمكن أن نكشف قانون الطّبيعة في حقيقته ؟ فإن يؤكّد نيتشه بلهجة كانطيّة بأنّنا لا يمكن أن نعرف قانون الطّبيعة في "ذاته"، وكلّ ما نعرفه هو نتائجه الظّاهرة في الأحداث والظّواهر. وبما أنّ كلّ قانون مرتبط بعلاقة بقانون آخر، فإنّ النّتيجة المحصّلة هي أنّنا لا نعرف إلاّ العلاقات الّتي تتميّز بالتغيّر والتعدّد.[84] ومن الواضح جدا اشتراك نيتشه وبرجسون في الكشف عن الأسس غير البديهية للعلم. بل أننا نعتقد بأن برجسون قد واصل مهما نيتشه عندما توصل إلى أننا ، في معرفتنا العلمية والعقلية، نتحايل في معرفة حقيقة الوجود بما هو صيرورة.[85] والأكثر تأكيدا على عملية تزوير العلم للواقع كما هو وجود تحايل مركب ومتراتب انطلاقا من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية إلى اللغة المستعملة في التعبير والتي تجمّد كل ما هو سائل.

لذا يمكن التأكيد أن منظور نيتشه وبرجسون معا مشترك في الانتقال من النموذج العلمي السكوني الذي يتصور العالم جواهر مستقلة ومنفصلة إلى تصور جديد يقوم على استبدال الجواهر بالعلاقات.[86] ومفهوم العلاقة أو التعالق corrélation هو الأكثر تعبيرا عن حقيقة الصيرورة من مفهوم الشيء أو الجوهر أو الذرة.

[81] Friedrich Nietzsche : la volonté de puissance, tome I, Op.cit, livre 1, § 206, p 89.

[82] Henri Bergson: Essai sur les Données immédiates de la conscience, Op.cit, p 109.

[83] Ibid, p 106.

[84] Friedrich Nietzsche : Vérité et mensonge au sens extra –moral, traduit par Michel Haar et Marc B. launay, éditions Gallimard, Paris, 2009.para 1, p 19.

[85] Henri Bergson: l'évolution créatrice, Op.cit, p 304.

[86] Pierre Montebello : l'autre métaphysique – Essai sur Ravaisson, tarde, Nietzsche et Bergson, édition Desclée de Brouwer, Paris, 2003, p 160.

يحق لنا الإشارة إلى إمكانية تطوير فكرة موجهة لدراسة مفهوم الصيرورة بين نيتشه وبرجسون. وقد أشرنا أعلاه أن تأويل فلسفة نيتشه بما هي فلسفة للصيرورة هو ما يعبر بحق عن مذهبه الكلي. وبرجسون لم يبتعد كثيرا عن مبدأ استبدال الماهية بالصيرورة وتأكيد حقيقة الوجود في حركيته، لأن التوقف عن التغير لا يدل إلا عن التوقف عن الحياة ذاتها.[87] تلك الحركة التي يجمدها العلم واللغة لصالح الحدود والكلمات. إن اللغة في طبيعتها مضادة لحقيقة الصيرورة الكونية: فاللغة تجعلنا نظن بأن أحاسيسنا ثابتة لا تتغير، إلى جانب كونها تخدعنا في حقيقة أحاسيسنا المعاشة. فميزة الكلمة أنها ذات حدود حادة جدا، بل أن الكلمة عنيفة من خلال تخزينها ما هو ثابت وعام وخارج الشخصانية الإنسانية. إن اللغة تفرض علينا ثباتها في حين نحن لسنا كذلك.[88] لذا اشتهرت عبارة برجسون بين الدارسين والناقدين القائلة: "هناك في الصيرورة أكثر مما هناك في الوجود". وهي الصيرورة التي تدل على الطابع الخاوصي،[89] كمبدأ ميتافزيقي جديد في تفسير الكون.

ننهي هذا الحيز البحثي، بنقد ذاتي، موجهة للفكرة التي أثرناها أعلاه، في مسألة إمكانية جعل الفلسفة النيتشوية والبرجسونية كمنطلق لفهم ثوري مفيد للواقع العربي. ومكمن هذا النقد هو أن الحداثة العربية المفترضة بأمس الحاجة إلى العقل والعقلانية من أجل الخروج من مرحلة تأويلية همشت العقل، في حين أن تلك الفلسفات قد قامت على التقليل من جرعة المعقولية الإنسانية لصالح الإنسان الحدسي والجمالي. فهل يستقيم هذا مع مطلب الحداثة العربية التي تفتقر إلى العلم والعقل والبرهان ؟ في هذا السؤال أقوال كثيرة تفتح مجالا جديدا للمباحثة.

[87] هنري برجسون: الضحك – ترجمة علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 2007، ص 27.

[88] Henri Bergson: Essai sur les Données immédiates de la conscience, Op.cit, p 98.

[89] Pierre Montebello : l'autre métaphysique – Essai sur Ravaisson, tarde, Nietzsche et Bergson, Op.cit, p 163.

قائمة المراجع:

- ابراهيم زكريا، (1956)، برجسون، القاهرة، دار المعارف.
- بارت رولان، (1992)، لذة النص، ترجمة منذر عياشي، (الطبعة الأولى)، حلب، مركز الإنماء الحضاري.
- برجسون هنري،(2007) الطاقة الروحية، ترجمة سامي الدروبي، (الطبعة الأولى)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- برجسون هنري، (2007)، الضحك، ترجمة علي مقلد، (الطبعة الأولى)، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.
- بلعقروز عبد الرزاق، (2014)، المعرفة والارتياب- المساءلة الارتيابية لقيمة المعرفة عند نيتشه وامتداداتها في الفكر الفلسفي المعاصر، (الطبعة الاولى)، بيروت، منتدى المعارف.
- العروي عبد الله ، (1993)، مفهوم الإيديولوجيا، (الطبعة الخامسة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- رسل برتراند، (2015)، النظرة العلمية، ترجمة عثمان نويه، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عنيات عبد الكريم (2015) الصيرورة في فلسفة نيتشه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة غير منشورة، جامعة عبد الحميد مهري – قسنطينة 2.
- مفرج جمال، (2009)، الإرادة والتأويل – تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، (الطبعة الاولى)، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- مونتيبيلو بيير، (2010)، نيتشه وإرادة القوة، ترجمة جمال مفرج، (الطبعة الاولى)، بيروت- الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت- الجزائر.
- ولسون كولن، (1982)، اللامنتمي – دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين، ترجمة أنيس زكي حسن، (الطبعة الثالثة)، منشورات الآداب، بيروت.
- وهبة مراد، (1987)، المذهب في فلسفة برجسون، (الطبعة الثانية)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- Bergson Henri, (1939), la pensée et la mouvant – essais et conférences, (septième édition), Paris, librairie Félix Alcan.
- Bergson Henri, (1962), l'évolution créatrice, (102e édition) , Paris, Presses Universitaire de France.
- Bergson Henri, (1932), les deux sources de la Morale et de la Religion, (11eme édition) Paris, librairie Félix Alcan.
- Bergson Henri, (1948), Essai sur les Données immédiates de la conscience, (68 eme édition), Paris, presses universitaires de France.
- Bergson Henri, (1903), introduction à la métaphysique, Revue de Métaphysique et de la Morale – Paraissant tous les Deux mois, (Onzième Année), Paris, Librairie Armand Colin.
- clerckx Edwin , (2005), langage et affirmation- le problème de l'argumentation dans la philosophie de Nietzsche, Paris, édition l'Harmattan.
- Heidegger Martin, (1971), Nietzsche, tome 1, traduit par Pierre Klossowski, (Paris), éditions Gallimard.
- Heidegger Martin, (1967), Introduction à la métaphysique, traduit Gilbert Kahn, Paris, édition Gallimard.
- Lalande André, (2002), vocabulaire technique et critique de la philosophie, Paris, PUF.
- Montebello Pierre, (2003), l'autre métaphysique – Essai sur Ravaisson, tarde, Nietzsche et Bergson, Paris, édition Desclée de Brouwer.
- Montebello Pierre: Nietzsche et Bergson- deux philosophes de la vie, in Magasine littéraire.

- Nietzsche Friedrich,(1997), Fragments posthumes – été 1882-printemps 1884, œuvres philosophiques complètes, tome IX, traduit par Anne-Sophie Astrup et Marc de Launay, Paris, éditions Gallimard.
- Friedrich Nietzsche, (1995), la volonté de puissance, traduit Geneviève Bianquis, tome 2, Paris, éditions Gallimard.
- Nietzsche Friedrich, (1991) Par-delà le bien et le mal, traduit Henri Albert, Paris, librairie général française.
- Nietzsche Friedrich, (2009), Vérité et mensonge au sens extra –moral, traduit par Michel Haar et Marc B. launay, Paris, éditions Gallimard.
- Platon, (1965), Phédon, traduit E. champry, Paris, édition Garnier- Flammarion.